obeikandl.com

obeikandl.com

٧٦٩ - أما تعلقهم بقوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ**﴾[١] فى أنه تعالى يخلق الكفر وسائر المعاصى، فبعيد، وذلك أنه تعالى وصفهم بالزيغ وأضاف ذلك إليهم فى الحقيقة، وبين أن عند ذلك تزيغ قلوبهم، فالمراد به أنه يعاقبهم على ذلك، والكلام فيه كالكلام فى قوله: ﴿**ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم**﴾[٢]، وقد بينا الكلام فى ذلك.

***

(١) سورة الصف: الآية ٥.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٢٧.

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

٧٧٠ - قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾[١] لا يصح تعلقهم به فى أنه خص بالإيمان والفضل بعض عباده دون بعض، وذلك أن المراد بالكلام النبوة، وهو تعالى يخص به بعض عباده دون بعض.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾[٢] يدل على ما قلناه.

* * *

(١) سورة الجمعة: الآية ٤.

(٢) سورة الجمعة: الآية ٢.

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

٧٧١ - أما قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[١] فإنه يدل على أنه تعالى لا يخلق الصد عن السبيل ولا الذهاب عنه، وإلا لم يكن لإضافته ذلك إلى المنافقين معنى، ولا كان لإيمانهم تأثير فى ذلك؛ لو كان تعالى هو الذى يخلق الكفر والذهاب عن الإيمان. وإنما يكون لذلك معنى من حيث كانوا يدعون إلى خلاف ما أظهروه من الإيمان ويحلفون عليه بأيمان فيستغوون به، ويبعثون به على الكفر، ولو كان العبد لا يختار فعله، وإنما يخلق فيه لم يكن لكل ذلك تأثير.

٧٧٢ - وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[٢] فقد بينا القول فى الطبع، ودللنا على أنه ليس بمنع على الحقيقة.

٧٧٣ - وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[٣] يدل على أنه لا يثيبهم ألبتة. ويدل على أنهم لا يتخلصون من العقاب؛ لأنهم لو تخلصوا من ذلك، لكان تعالى قد هداهم إلى البغى!

* * *

(١) سورة المنافقون: الآية ٢.

(٢) سورة المنافقون: الآية ٣.

(٣) سورة المنافقون: الآية ٦.

obeikandl.com

obeikandl.com

٧٧٤ - أما قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾[١] فإنه لا يدل على أنه خلق الكافر كافرًا، والمؤمن مؤمنًا؛ لأن ظاهره يقتضى أنه خلقهم، وذلك يقتضى خلقه لأجسامهم، ثم قسمهم قسمين على الوجه الذى ذكره؛ وليس فيه أن ما صار به المؤمن مؤمنًا، والكافر كافرًا من خلقه تعالى.

وقد قال أبو على، رحمه الله: لو كان كما قالوا، لقال: فمنكم كافرًا ومنكم مؤمنًا، بالنصب، فلما ذكر - تعالى - بالرفع دل على أن الإيمان من فعلهم لا من خلق الله فيهم!

٧٧٥ - وقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[٢] فإنه يدل على العدل؛ من حيث بين أنه خلقها بالحق. وقد بينا أنه لو جاز أن يفعل القبيح، لما صح أن يثبت ذلك، ولما صح أيضًا أن يكون قد أحسن الصورة وفعلها على وجه تحسن عليه. فالآية تدل على تنزيهه عن القبيح.

٧٧٦ - وقال أبو على، رحمه الله: وصفه تعالى ذلك اليوم، وهو يوم القيامة بأنه يوم التغابن، إنما يصح على قولنا فى العدل، وذلك ينبىء أنهم صاروا مغبونين. وأن من فاز وظفر بالجنة، فهو غابن لهم، وذلك لا يصح إلا مع العلم بأنهم قصروا فيما قدروا عليه، فلحقهم الغبن، ولو كانوا لم يقدروا فى دار الدنيا على ذلك لم يصح هذا القول.

٧٧٧ - وقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[٣] فلا يدل على أن ما يؤدى إلى المضرة من تصرف العبد، من فعله تعالى، لأنه

---

(١) سورة التغابن: الآية ٢.

(٢) سورة التغابن: الآية ٣.

(٣) سورة التغابن: الآية ١١.

لو دل ظاهره على ذلك لدل على أنه يأمـره تعالى، ولا خـلاف فى أنه تعالى لا يأمر بالقبيح. فـالمراد بذلك ما ينزل به من الشدائد والمحن، التى تكون من قبله تعالى، وذلك لا يكون إلا بعلمه وإرادته.

وقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ أراد به تعالى مـا بيناه من زيادة الهدى والبصيرة؛ لأنها تؤثر فى قلبه فتزيده سكونا، وقد بينا القول فى ذلك.

***

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

٧٧٨ - وأما تعلقهم بقوله: ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾[١] فى أن الرجعة يجب أن تكون حادثًا من فعله تعالى، فغلط، وذلك أنه تعالى لم يذكر ما ذلك الأمر الذى يحدثه، فمن أين المراد به لرجعة دون أن يكون الشهوة والرغبة لمراجعتها، وذلك من فعله، والظاهر لا يليق إلا بهذا الوجه، وذلك أنه تعالى منع المطلق من أن بيت الطلاق، لكى يتمكن من التلاقى إذا وجد فى قلبه الشهوة والرغبة.

٧٧٩ - وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[٢] لا يدل على أن تصرفه من قبله، بل يدل على أنه الذى يحدثه، ليصح أن يكون متوكلا. وقد بينا حقيق التوكل، وأنه يقتضى كون المتوكل متخيرًا فيما يفعل، مؤثرًا لفعل على فعل.

٧٨٠ - وقوله: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[٣] غير دال على أن الأشياء حادثة من قبله، وذلك أن جعله لما قدرًا، لا ينبىء عن أن ذاتها موجودة من جهته؛ لأن المقدِّر والمدِّبر قدير فعل غيره، وفعل نفسه، ويقدرهما. فالتعلق بظاهره لا يصح.

ولا يمتنع من أنه تعالى قد قدر أفعال العباد، وجعل لها مقادير بالحبر والكتابة.

---

(١) سورة الطلاق: الآية ١.

(٢) سورة الطلاق: الآية ٣.

(٣) سورة الطلاق: الآية ٣.

٧٨١ - وقوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾[1] يدل على أنه تعالى لا يكلف العبد ما لا يطيقه، على وجه من الوجوه، وقد بينا القول فى ذلك فى مواضع.

ويدل أيضًا على أن الفعل للعبد؛ لأنه تعالى أمره بأن ينفق بحسب ما يؤتيه فإذا ضيق عليه رزقه أنفق بحسبه، وإذا وسع عليه فكمثل، لأن قوله: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ المراد به: ومن ضيق عليه فى رزقه. وهو الذى أراده تعالى فى قصة ذى النون: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾[2] يعنى: أن لا نضيق عليه.

* * *

(١) سورة الطلاق: الآية ٧.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٨٧.

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

٧٨٢ - قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[١] يدل على أن العبد قادر على فعله، وأنه الذى يحدثه، ليصح منه أن يتقى النار بما يختاره، وأن يقى أهله ذلك بما يدعوهم إليه. وهذا لا يصح مع القول بأنه تعالى يخلق فيه الفعل على وجه لا يمكنه خلافه.

٧٨٣ - وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٢] فمن قوى ما يدل على أنه تعالى لا يخلق أفعال العباد؛ لأنه لا يخلو قوله: ﴿لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾ من أن يريد به منعهم من الاعتذار ولهم عذر، أو أن يريد بذلك أن لا عذر لهم، وقد علمنا أنه لا يجوز أن يكون المراد الأول، لأنه كان يجب أن يكون لهم عذر فى الحقيقة، وقد منعهم من ذكره، وهذا لا يجوز عند أحد، خصوصًا فى الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يدل على بطلان ذلك أيضًا، لأنه لو كان لهم ذعر فى الحقيقة، لكانوا قد جُوزُوا بما لم يفعلوا، وعلى وجه يقبِّح العذر الذى معهم، فإذن صح بأنه لابد من القول بأنه لا عذر لهم. ولو كان الأمر كما تقوله المجبرة، لوجب أن يكون لهم عذر، بل أعذار كثيرة، كل واحد منها يقوم بنفسه فى ظهور عذرهم، وفى سقوط العقاب عنهم. وذلك أن لهم أن يقولوا: إنما أتينا فى كفرنا من قِبَلك، وفى أن لم تفعل الإيمان من جهتك، لأنك سلبتنا القدرة عليه، وأعطيتنا قدرة الكفر، وجعلتها موجبة للكفر، وخلقت مع ذلك الكفر فينا وإرادته فيما لم تزل، فلم يمكن مفارقته، وخلقت فينا قدرة الإرادة له، ونفس الإرادة والاختيار. وكل واحد

---

(١) سورة التحريم: الآية ٦.

(٢) سورة التحريم: الآية ٧.

من ذلك لو حصل بانفراده فينا، لا متنع الإيمان منا، ووجب الكفر!! فكيف لا يكون ذلك عـذرًا لنا فى زوال العـقـاب عنا؟ ولئن جـاز أن لا يُعـدُّ ذلك عذرًا، فـيجب أن يجـوز معاقـبة العـاجز والزمن، وأن لا يجـعل ذلك عذرًا فيهم، وفى هذا إخراج كل عذر من أن يكون عذرًا!

فلما بين تعـالى أن لا عذر للكافرين، وكـان قولهم يقتضى مـا ذكره، فيجب صحـة ما نقوله، يسلم معه القول بأنهم من قـبل أنفسهم أتوا، لأنهم مُكِّنوا من الإيمان، وأزيحت علـلهم فيه، فعـدلوا عن فعله، لغلبة الشـهوة، وإيثار الهوى، وتركوا ما فيه فوزهم ونجاتهم، فلم يكن لهم عند نزول العقاب بهم معذرة على وجه.

٧٨٤ - وقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ**﴾[1] يدل على أن السيئات إنما تكفَّر، إذا عظمت أو صارت كبيرة، بالتوبة، على ما نقوله.

* * *

(١) سورة التحريم: الآية ٨.

obeikandl.com

obeikandl.com

٧٨٥ - قوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾[١] يدل على نفى القبائح عن خلقه؛ لأنه لو كان هو الخالق لها، وفيها توحيد وتشبيه وتثليث، لكان ذلك متفاوتًا. وفيها عبادة الله وعبادة غيره، والحكمة والصواب، والسفه والباطل. ولا تفاوت أعظم مما اختص به ذلك، فيجب أن يدل على أنه ليس من خلقه تعالى على وجه.

وليس لأحد أن يقول: المراد بذلك أنه لا تفاوت فيما خلقه من السموات، لأن حمله على ظاهره يمكن ويفيد. فلا يجب تعليقه بما تقدم. وإن كان لو حمل على ذلك لوجب ما قلناه أيضًا؛ لأن نفى التفاوت، فى باب الحكمة والسفه، عن شىء من أفعاله، لا يصح إلا مع القول بأنه منزه عن القبائح.

٧٨٦ - وتعلقهم بقوله: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾[٢] فى أنه يدل على أنه خلق ما فى الصدور، فبعيد، وذلك أن ظاهره لا يل إلا على أنه خلق ما تقدم ذكره، وكما تقدم ذكر ذات الصدور، فقد تقدم ذكر الصدور بنفسها، فمن أين أن المراد به أحدهما دون الآخر؟

وبعد، فإن حمله على ما قالوه يوجب أنه خلق ما فى الصدور من القول؛ وقد علمنا أن ذلك لا حقيقة له! ومتى قال: المراد به العلم بالقول، فقد خرج عن الظاهر!

وبعد، فإن العلم الذى يستسرّه الإنسان، الأقوى أن يكون ضرورة، ويكون تعالى هو الخالق لها، فحمله على ظاهره يصح على قولنا، فأما أن

---

(١) سورة الملك: الآية ٣.

(٢) سورة الملك - الآيات ١٣ - ١٤.

يدل الآية على أنه يخلق مـا يسره من الإرادة، والعـزم، وسائر ما يـكتسب، فالظاهر لا يدل عليه.

وبعـد، فإن الذى يقـتضـيـه الكلام، أنه وصف نفسـه بأنه يعلم السـر وأخفى. ثم بين الوجـه الذى له وجب كونه عالمًا، فـقال: ﴿**أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ**﴾ يريد ألا يعلم الخالق الأشـياء، الذى هو قديـم قادر لذاته؟ فحـملهم على ما ذكروه بعيد.

٧٨٧ - وأما قوله تعالى: ﴿**أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ**﴾[1] فقد بينا من قبل المراد بذلك، فلا وجه لإعادته.

* * *

(١) سورة الملك: الآية ١٩.

obeikandl.com

(١) سورة القلم.

obeikandl.com

obeikandl.com

٧٨٨ - [قوله تعالى]: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾[١] يدل على ما نقوله فى الوعيد؛ لأن الأمر لو كان كما تقوله المرجئة، لكان لا يمتنع فى كثير من المجرمين أن يجعل حالهم فى إدخال الجنة، كحال المسلمين، وقد شرحنا ذلك من قبل.

٧٨٩ - وأما تعلق المشبهة بقوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾[٢] فبعيد، وذلك أنه ليس فى الظاهر إضافة الساق إلى من هو له، لو كان المراد بالساق الجارحة، فمن أين أن المراد إثباته لله؟ تعالى عنه! وإنما أراد بذلك أن يبين شدة ذلك اليوم، وعظيم ما ينزل فيه على أهل العقاب عند المحاسبة، فقال تعالى هذا القول على طريق العرب فى هذا الباب.

وقوله: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لا يجوز تعلق المجبرة به فى تكليف ما لا يستطاع؛ لأن الغرض بذلك ليس هو التكليف، لأن الآخرة لا يصح فيها ذلك. والمراد به: التبكيت على تقصيرهم فيما كلفوه من السجود، وبيان أنهم لا يمكنهم تلافى ما فرطوا فيه من قبل.

٧٩٠ - وقوله: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾[٣] يدل على أنهم فى حال التكليف، كانوا سالمين من المواقع، مُمَكَّنين منه، فعدلوا عنه، فلحقهم العذاب.

٧٩١ - وأما قوله تعالى: ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[٤] فقد مر الكلام فى نظائر ذلك، وبينا تأويله.

---

(١) سورة القلم: الآيتان ٣٤، ٣٥.

(٢) سورة القلم: الآية ٤٢.

(٣) سورة القلم: الآية ٤٣.

(٤) سورة القلم: الآية ٥٠.

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

٧٩٢ - أمـا تعلق المشبـهـة بقوله تعـالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾[١] فى أنه يدل على أن العرش مكان له، من حيث الإضافـة، فبعيد، وذلك لأن الإضافة على هذا الوجه تصح على وجـوه مختلفة، فلا يدل على ما قـالوه، ولو وجب بذلك أن يكون العـرش مكانه، لوجب، متى وصـفت الكعبة بأنهـا بيت الله أن تكون مسكنًا له! وأن يكون فيهـا، ويتعالى الله عن ذلك. وكان يجب على قولهم أن يكون عرشه محمولا، ولا يكون كذلك إلا وهو محـمول؛ لأن الجسم إذا حـمل فقد حـمل ما عليه، والله يتـعالى عن ذلك!

٧٩٣ - وتعلقهـم بقولهم: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾[٢] فى إثبات اليد لله تعالى، فبـعيد، وذلك أن المراد به القدرة، على ما بيناه من قبل. وقد بينا أن حمله فى الحقيقة على ظاهره يوجب إثبات يمين ويسار على الصفة المخصوصة التى علقناها، وذلك لا يصح عند مسلم.

***

(١) سورة الحاقة: الآية ١٧.

(٢) سورة الحاقة - الآيتان ٤٤، ٤٥.

obeikandl.com

(١) سورة المعارج.

obeikandl.com

obeikandl.com

٧٩٤ - أما تعلق المشبهة بقوله: ﴿مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾[١] فبعيد، وذلك أن المعارج هى الدرجات الرفيعة، والله تعالى مالك لذلك وخالق له، فصح أن يضيفهما إلى نفسه.

٧٩٥ - وقوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾ - وهو يعنى جبريل - إليه المراد به: إلى موضع هذه الدرجات، وقد بينا فى مواضع أن ذلك لا يجب حمله على ظاهره.

٧٩٦ - وقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً﴾[٢] لا يدل على جواز القرب على الله تعالى، لأن المراد بالآية يوم القيامة والساعة، وهى معدومة، فالقرب فى الحقيقة فيها لا يصح، كما أن بعدها لا يصح، فالمراد أنه تعالى يعلمه قريبًا، من حيث يظنونه بعيداً.

٧٩٧ - وقوله تعالى: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾[٣] يدل على نزول العذاب بكل مجرم. وعلى أنه لا مخلص له من ذلك اليوم من العذاب؛ لأنه لو خلص منه بشفاعة، أو غيرها، لما جاز أن يوصف بهذه الصفة التى تقتضى اليأس من التخلص من العقاب.

٧٩٨ - وقوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً﴾[٤] لا يدل على أن الشر من فعله، لأنه ليس فى الظاهر أن الشر الذى مسه من فعله، أو من فعل غيره، وإنما وصفه بالجزع والهلع عند مس الشر له، فمن أين أن المراد قالوه؟

---

(١) سورة المعارج - الآيتان ٣، ٤.

(٢) سورة المعارج - الآيتان ٦، ٧.

(٣) سورة المعارج: الآية ١١.

(٤) سورة المعارج: الآية ٣٠.

وإنما المراد بالآية: أنه إذا مسته المصائب يلحقه الجزع والقلق، ويقل صبره على الشر، ليبين ضعف الإنسان، وقلة نظره لنفسه، وقد بينا أن حقيقة الشر هو الضرر القبيح، والله تعالى لا يفصله، لكنه لا يمنع أن يستعمل فيما يفعله من المحن، من حيث شابهت الشر فى أنها مضرة، وقد تقدم القول فى ذلك.

***

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

٧٩٩ - قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾[١] لا يدل على أنه جسم يوصف بالوقار فى الحقيقة؛ لأنه ليس فى الظاهر أن الوقار من صفته، فيجوز لهم التعلق به.

والمراد عندنا بذلك: ما لكم لا تعظمون الله حق تعظيمه، فتجانبوا معاصيه، وتمسَّكوا بطاعته.

٨٠٠ - وقوله تعالى: ﴿وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً﴾[٢] لا يدل على أن الضلال الذى هو الكفر، من قبله تعالى، لأنا قد بينا أن هذه اللفظة تقع محتملة، فلا تدل على أنه المراد بها، وإنما أراد بهذا الدعاء أن يزيدهم عقابًا إلى ما هو عليه من المحن، لأنهم بظلمهم وكفرهم، قد استوجبوا العقاب المعجَّل، والمؤجّل ولا يمتنع أن يدعوه بأن يزيدهم فى المعجل غير ما أنزله بهم، ولا يكون المدعو به إلا حسنًا مستحقًا.

٨٠١ - وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[٣] لا يصح أن يتعلق به من يرى جواز تعذيب الأطفال؛ لأنه يجب على هذا الظاهر أن يكون المولود منهم فى حال سقوطه فاجرًا كافرًا، وهذا مما لا يبلغه أحد، فالمراد إذن به: ولا يلدوا إلا من سيفجر ويكفر عند البلوغ؛ لأنه تعالى كان قد أعلمه أن ذلك يكون حالَ ذريتهم، وندبه إلى هذا الدعاء، لما فيه من المصلحة.

---

(١) سورة نوح: الآية ١٣.

(٢) سورة نوح: الآية ٢٤.

(٣) سورة نوح: الآية ٢٧.

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

٨٠٢ - قـــوله تعـــالى: ﴿وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾[١] لا يدل على أنه تعالى يريد الشر والقبيح، لأنه ليس فى ظاهره ذكر المريد من هو، كـما ذكـر فى ظاهره أنه تعالى أراد بهم الرشـد، ولأنه حكاية عنهم، أنهم أوردوه على طريقـة الشك، فلا يجوز أن يتعـلق بظاهره وقد بينا من قـبل أن الشدائد والمحن الواردة من قـبله تعـالى توصف بأنها شـر، على طريقة المجاز، ولا يمـتنع أن يكون أهل اللغة استعملوه على طريق الحـقيقة، من حيث عندهم أن الشر هـو الضرر، وإنما يخرج عن هذه الصفة بالعـاقبة، فإذا لم يعرفوها، دخل عندهم فى حقيقة الشر.

٨٠٣ - وقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾[٢] بعد ذكـر الوعيـد فى القاسطين، بدل علـى أنهم متـمكنون من الاستـقامـة على الطريق، وإن كانوا فى الحـال قاسطين. وذلك يوجب أن المكلف مـتمكن من غير الفعل الذى اختاره.

٨٠٤ - وقوله: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾[٣] تقدم القول فـيه: أن المراد به تشديد المحنة دون الكفر والمعاصى.

٨٠٥ - وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾[٤] يدل على ما تقوله فى الوعيـد، لأنه تعالى أوجب لمن هذا وصفه، الخلود فى النار، ولم يخص الكافر من الفاسق.

---

(١) سورة الجن: الآية ١٠.

(٢) سورة الجن: الآية ١٦.

(٣) سورة الجن: الآية ١٧.

(٤) سورة الجن: الآية ٢٣.

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

٨٠٦ - قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾[١] لا يدل على أن فى ذلك اليوم يخاف الولدان ويعذَّبون. وذلك لأن هذه الطريقة تذكر لِعظم حال يوم القيامة، وعلى هذا الوجه يقال فى الأمر الهائل العظيم: تشيب منه النواصى، وتشيب الولدان. وهذا كقوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾[٢]، وكقوله: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾[٣] فى أن المقصد بجميعه الإنباء عن عظيم ما يرد ذلك اليوم على أهل المعاصى، دن تحقيق ذلك على جهة الخبر، يبين ذلك أنه تعالى جعل هذا الذكر باعثًا للعباد على ترك الكفر، والتقوى، ولو كان ذلك اليوم بهذه الصفة، لكان بأن يزهد فى الإيمان والتقوى أقرب، لأن المكلف إذا تصور أن ذلك اليوم يعذب من لا ذنب له، زهد فى طاعته، ويجوز أن تكون من أسباب هلاكه، يبين ذلك أنه تعالى أضاف ذلك إلى اليوم، وقد علمنا أن اليوم لا يجعل ولا يفعل، وأن الفاعل سواء، وكل ذلك يبين أن الظاهر يقتضى ما قلناه.

٨٠٧ - فأما قوله تعالى قبل ذلك: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾[٤] فإنه لا يدل على أن قول الإنسان من فعله تعالى، لأن المقصد بهذا الكلام: أنا ننزل عليك القرآن الذى يثقل تحمله، وتكفل أداءه إلى من يلزم الأداء إليه. ووصفه بالثقيل لهذه العلة، وجعل الإنزال إليه، ويحمله الفاعل، على طريقة اللغة فى مثله.

---

(١) سورة المزمل: الآية ١٧.

(٢) سورة القلم: الآية ٤٢.

(٣) سورة القيامة: الآية ٢٩.

(٤) سورة المزمل: الآية ٥.

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

٨٠٨ - قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[1] فلا يدل على أن الملائكة يعذبون، ولا على أنه - تعالى - يجعلهم فتنة، لكى يكفر الكافر، وذلك أنه تعالى بين أنه جعلهم أصحاب النار، بمعنى أنه وكلهم بتعذيب أهل النار، ولو حمل الأمر على خلاف ذلك، لوجب ألا يدخل النار سواهم، وأن يكونوا معذبين، وهذا بخلاف دين المسلمين! وبيَّن تعالى أن القدرة التى ذكرها منهم، على قلتها، جعل الاكتفاء بها دلالة على قدرته، وألزم من هذا الوجه الاستدلال على ما هو عليه، وشدد فيه المحنة، فصار ذلك فتنة للذين كفروا، وجعلهم كذلك، ليستيقن الذين أوتوا الكتاب، من حيث يعلمون بهذا الخبر أنه، ﷺ، لا يخبر إلا عن وحى، من حيث توافق ذلك، وليزداد الذين آمنوا إيمانًا، وكل ذلك يدل على أنه - تعالى - يفعل هذه الأمور ويخبر عنها؛ ليعتبر الخلق، ويستدلوا، ويقوموا بما كُلِّفوا.

٨٠٩ - وأما قوله: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[2] فقد تقدم القول فى مثله، وأن المراد بذلك الضلال عن الثواب، والهدى إليه.

٨١٠ - وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[3] يدل على أنه لا يؤاخذ الإنسان إلا بذنبه، وأن أطفال المشركين لا يجوز أن يعذبوا بذنوب آبائهم. ويدل ذلك أيضا على أن أفعال العباد لا يجوز أن تكون خلقًا لله تعالى وإلا

---

(١) سورة المدثر: الآية ٣١.

(٢) سورة المدثر: الآية ٣١.

(٣) سورة المدثر: الآية ٣٨.

كان مأخـوذًا بخلق غيره على وجه لا يمكنه التـخلص منه، ولئن جاز ذلك، ليجوزن أن يؤخذ بكسب غيره، وأن كان لا يقدر» على تركه.

٨١١ - وقوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾[١] من أقوى ما يدل على أن من لم يُصَلِّ فى دار الدنيا قادر على الصلاة؛ لأنه لو لم يكن قادرًا عليها، لما صح أن يعذب، لأنه لم يفعلها كما لا يعذَّب العاجز، لأنه لم يفعل مالا سبيل له إلى فعله.

٨١٢ - وقوله: ﴿كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾[٢] للمكلفين، لكى يتـعظوا وينزجوا. ثم قال: ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾[٣] ولا يُطلق ذلك فيمن لا يـقدر على الفعل، لأنه لا يقـال فى العبـد: إن شاء أدار الفلك وطـار فى لجو، من حـيث يتعـذر ذلك عليه، وإنما يقال هذا القول فيما يتمكن منه.

٨١٣ - وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾[٤] فليس فى ظاهره إلا ما تقـول: من أن العـبد لا يطيع إلا والله قـد شـاءه؛ لأنه تعـالى لو لم يكلف ذلك، ولم يأمر به، ولم يشأ حدوثه، لم يكن ذلك طاعة، فكان لا يصح من العبد أن يشاء على هذا الحد. وإنما كان يكون شـبهة للقوم لو كان المذكور من المعاصى، فأمـا إذا كان من الطاعات، فلا تعلق لهم به، وقـد قال تعالى مل ذلك فى سورة الإنسان: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾[٥] فبين أنه لا يشاء اتخاذ السبيل، وسلوك طريق الحق، إلا أن يشاء الله ذلك بالتكليف، والأمر والنهى، وإبلاغـهم حد التكليف، على ما بيناه.

---

(١) سورة المدثر - الآيتان ٤٢، ٤٣.

(٢) سورة المدثر: الآية ٥٤.

(٣) سورة المدثر: الآية ٥٥.

(٤) سورة المدثر: الآية ٥٦.

(٥) سورة الإنسان: الآيتان ٢٩، ٣٠.

وقال تعالى بعد ذلك فى ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾[٢]: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾[٣] يعنى: ما تقدم ذكره من الاستقامة، على الوجه الذى بينا.

وما لم يحمل الكلام فى هذه الآيات على ما قلناه، لم يصح أن يتعلق به المخالف؛ لأنه يوجب أنه تعالى يوجب أنه يشاء، بعد ما لم يكن شائيًا له، على ما يقتضيه ظاهره، وليس ذلك طريقة القوم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ لا بد من أن يكون متعلقا بما تقدم، على ما تقضيه اللغة، فكأنه قال: وما تشاءون من استقامة الطريق إلا أن يشاء الله تعالى، فلا يخلو المراد به من أن يكون مشيئة مستقبلة، أو المشيئة التى ذكرناها.

وقد علمنا أن فى المستقبل لا يجب أن يشاء الله تعالى ما قد تقدم فعله، أو وفيه من فعال المكلف. فلابد من أن يحمل الكلام على ما ذكرناه.

***

(١) سورة التكوير: الآية ١.

(٢) سورة التكوير - الآيات ٢٧ - ٢٩.

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

٨١٤ - قوله تعالى: ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾[١] يدل على أنه لا حجة ولا عذر للكافر والفاسق فيما ينزل بهما من العذاب ذلك اليوم. وقد علمنا أن الأمر لو كان كما يقوله القوم، لكان لهم أوضح العذر وآكد الحجة. وقد فسرنا ذلك من قبل.

٨١٥ - وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[٢] لا يدل ظاهره على أنه تعالى يرى: من وجوه: أحدها: أنه تعالى ذكر أنها ناظرة إلى ربها، والنظر غير الرؤية»لأنه إذا علق بالعين، فالمراد طلب الرؤية، كما إذا علق بالقلب، فالمراد طلب المعرفة، ولذلك يقول القائل: نظرت إلى الشيء فلم أره، ونظرت إليه حتى رأيته، فلذلك نعلم باضطرار أن الناظر ناظر ولا نعمله رائيًا إلا بخبره. ولذلك أضافت العرب النظر إضافات، فجعلت منه نظر الراضى والغضبان.. إلى غير ذلك، ولم تضف الرؤية على هذا الحد. وإذا كان النظر غير الرؤية - لما ذكرناه - فكيف يدل الظاهر على أنهم يرون الله؟

ومتى قالوا: إذا ثبت بالظاهر أنه يُنظر إليه، وجب أن يكون مما يصح رؤيته، قلنا: هذا يؤدى إلى أن يكون جسمًا فى جهة مخصوصة؛ لأن النظر هو تقليب الحدقة نحو الشيء التماسًا لرؤيته، وهذا لا يصح إلا والمطلوب رؤيته فى جهة مخصوصة، وذلك يوجب أنه جسم، تعالى الله عن ذلك! ولهذا إنه تعالى لما خلق النظر بنفسه، وعلمنا أن ذلك لا يصح فيه؛ وجب أن يكون المراد به الثواب؛ لأن الحكم الذى يقتضيه الاسم إذا لم يصح فيما علق

---

(١) سورة القيامة: الآيتان ١٤، ١٥.

(٢) سورة القيامة: الآيتان ٢٢، ٢٣.

به، وجب أن يكون المراد غيره، كقوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾[1]، إلى غير ذلك من وجوه المجاز.

والثانى: أنه تعالى وصف الوجوه بأنها ناظرة، وقد علمنا أن هذه اللفظة تفيد الجملة؛ لأن الناظر هو الإنسان دون بعضه، كما أنه العالم والقادر والفاعل، فإذا صح وكان الإنسان يوصف بأنه ناظر على وجه فيراد به الانتظار، وقد يراد به تقليب الحد طلبًا للرؤية، وقد يراد به التفكر بالقلب طلبًا للمعرفة، فليس فى الظاهر - إذن - دلالة على ما قاله القوم، وهو محتمل له ولغيره.

والثالث: أنه تعالى أراد بذكر الوجوه جملة الإنسان، لا البعض المخصوص ولذلك وصف الوجوه بأنها ناظرة، وذلك يليق بها دون الأبعاض، ولذلك قال من بعد: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا﴾[2]. فوصفها بالظن الذى لا يليق بالوجه. فإذا صح ذلك وجب كون الكلام مجملاً، لأن الجملة إذا وصفت بأنها ناظرة، لم يفهم أن المراد بها الرؤية، لا يصح، [لأن] تعليق النظر بالوجه غير معروف فى اللغة. والذى يُعرف تعليقه بالعين هو الرؤية، فأما تعليقه بالوجه، فهو كتعليقه بالرأس، فى أنه غير معروف أصلا! لأن هذا القول إنما كان يتم لو كان المراد بالوجه المخصوص، وقد بينا أن الأمر بخلافه، ففارق ذلك ما استدللنا به من قوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾[3] فى نفى الرؤية، لأن الإدراك المطلق متى قُرن بالبصر، لا يعرف فى اللغة أن يراد به إلا الرؤية بالبصر. وهذا بين.

---

(١) سورة يوسف: الآية ٨٢.

(٢) سورة القيامة: الآيتان ٢٤، ٢٥.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.